الضبط البيليوغرافي للتراث العلمي العربي المخطوط خلال العصر العثماني *

لعلّه من الطّبيعي القول بأنّ فهارس الشّيوخ أو برامج العلماء [1] وكتُب تصنيف العلوم [2] وما ترتّب عن ظهور "الفهرست" كانت من الأسباب الجوهرية في مواصلة ظهور كتُب الضّبط البيبليوغرافي الإسلامية؛ ابتداء من القرن العاشر الهجري ، والدّليل على ذلك هو تأثر ابن النّديم فيما سبق بما حوته فهارس مكتبات العلماء ،و المكتبات التي كانت تزخر بها الحواضر الإسلامية ، شرقا وغربا[3]. بل إنه يمكن القول بناء على ما تقدّم بأنّ فهارس الشّيوخ ذاتها كانت أسبق وجودا من الفهرست ذاته حيث ارتبطت منذ نشأتها الأولى بعلم الحديث والإسناد للمحافظة على نقاء العلم وصيرورته..

---

* د.محمد صاحبي ــ كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية ــ جامعة وهران/ الجزائر

[1] لقد عرفت هذه الفهارس تطورا ملحوظا في المشرق كما في المغرب والأندلس ، منذ القرن الثالث الهجري إلى غاية القرن الماضي (القرن الرّابع عشر الهجري) و كان يُقصد بهذه الفهارس التي اتّخذت مصطلحات عديدة مثل : الأثبات ،والبرامج ،و المشيخات والمعاجم، والمسلسلات ،و التقييدات ،و الاسنادات "[1]", تلك القوائم التي كان بها العالم المسلم يحصُر و يسجّل و يصف الكتُب التي درسها على شيوخه، سواء كانت بالقراءة أو السماع أو الإجازة ، و كانت هذه الفهارس (البرامج) تُتداول بين العلماء ، وممّا يتفاخرون به فيما بينهم ..ومما هومشهور في هذا الباب عدد كبير من العلماء منهم على سبيل المثال: فهرسة ابن خير الإشبيلي(أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي الأشبيلي ولد باشبيلية عام ٥٠٢ و توفي في قرطبة عام ٥٧٥ه). راجع ذلك في دائرة المعارف الإسلامية In Encyclopédie de l'Islam, Tome 3.p1233.

والقاضي أبو العباس أحمد بن أحمد الغُبريني ، المولود ببجاية أو بني غُبرين سنة ٦٤٤ ه-و تــوفي بهاسنة٧١٤هــ صاحب" عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية"..

[2] القرن الرّابع الهجري أنه العصر الذي عرف ازدهارا كبيرا في التأليف، و كثرة في عدد المكتبات،وقد عرف بالإضافة إلى ذلك ظاهرة جديدة نشأت مع هذا التوزّع في التأليف و الاختلاف في اتجاهاته، هي نزوع بعض العلماء نحو حصر تلك العلوم و التّعريف بها. و كان على رأس هؤلاء: الفارابي (٣٣٩ ه)، الذي ألف كتابه "إحصاء العلوم" و تناول فيه علوم عصره فبوّبها و عرّف بها. و في أثر الفارابي، جاء الخوارزمي (محمد بن أحمد ٣٨٧ه)، الذي كان في عمله هذا قريبا من عمل الفارابي. غير أنّ هذين العالمَين وقفا في كتابيهما عند هذا الإحصاء، يريدان أن يبيّنا منهج كل علم و طبيعته و حدوده، ليفرّقا بين العلوم و العلماء.

[3] مع الرّبع الأخير من القرن الرّابع الهجري قام محمد بن إسحاق بن النّديم الورّاق(ت٣٧٧هــ)، بالاستعانة بفهارس بعض المكتبات التي انتشرت في عواصم الدّويلات و الإمارات، و قوائم مؤلفات العلماء،بتصنيف عمل أطلق عليه اسم "الفهرست" . ولم يكن يدري أنه كان أوّل من يبتكر علما أطلق عليه مصطلح علم البيبليوغرافيا، أو علم الكتابة عن الكتب..

وعليه، فإن التركيز على القرن العاشر الهجري ، الذي عرف انطلاقة جديدة، لكتب الضبط هذه ، لا يعني البتة ، أن المُصنفات في هذا العلم لم تكن موجودة قبل هذا التاريخ ، بل الأصحّ القول بأن تاريخ الثقافة الإسلامية ، ممثلا في كتب التراجم و الطبقات و غيرها , يحفظ لنا أسماء العديد من العلماء و المُصنفين ، الذين أنجزوا أعمالا "بيبليوغرافية عديدة" مثل ذلك الذي يُنسب إلى المتكلّم الشيعي الإمامي الشيّخ أبو جعفر رشيد الدّين محمد المازندراني المتوفى في سنة ٥٨٨هـ ، صاحب الكتاب الشّهير بـ"المناقب" و المعروف بـ"معالم العلماء"، والمؤرخ أبو الحسن علي بن أنجب البغدادي المتوفي سنة ٦٧٤هـ , صاحب كتاب أخبار المُصنّفين في كتابه (أسماء المصنفات) و غيرهما [1]، لكنّ عدم طبع ونشر هذه الأعمال ،وضيق مجال مادتها قد حال دون وضعها في خانة الأعمال البيليوغرافية الكبرى.

فإذن بين هذا وذاك برزت إلى الوجود أعمال بيبليوغرافية متميّزة ابتداء من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي - وهو التاريخ الذي تميّز بطابع عثماني-تركي- هي عبارة عن مزيج ممّا عُرف عند واضعي فهارس الشيوخ ،عندما قاموا بالإضافة إلى ذكر مناقب العلماء و الشّيوخ بتحديد العلوم و ترتيبها ،ثم حصر المؤلفات حصرا بيبليوغرافيا شاملا .

أما ما يُميّز هؤلاء البيبليوغرافيون عن سابقيهم أنّهم عثمانيون أو أتراك،ينتمون إلى علية القوم بالحواضر التركية مثل اسطمبول و غيرها،و كان بينهم الضابط الكبير في الجيش العثماني مثل "حاجي خليفة" و العالم المقتدر مثل "طاش كبري زادة ".

فما هي الدواعي التي كانت وراء هذا الاهتمام العلمي، وما المعطيات الموضوعية و الذاتية التي شحذت همّتهم للتصدي لعلم مثل علم البيليوغرافيا(أو علم أحوال الكتب بتعبير حاجي خليفة ذاته)؟

الواقع أن الإجابة عن هذا التساؤل سيحيلنا مباشرة إلى الظروف السياسية و الثقافية العامة التي كان يعيشها العالم الإسلامي آنذاك، لعلنا نتعرف على بعض أسباب اهتمام العثمانيين بالتراث العلمي المخطوط الإسلامي جمعا وتصنيفا في بداية الأمر ، ثم ضبطه بيبليوغرافيا في تلك المصنفات التي غدت مع مرور الزمن رافدا مهما لكل باحث في التراث العلمي و الثقافي العربي الإسلامي..

إن سقوط غرناطة في يد المسيحيين سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٢م، ونهاية حُكم المسلمين في الأندلس،ثم ولوج بعض ما تبقى من الدويلات في الفوضى و الحروب المدمرة ، قد سارع في وتيرة نقل المركز الحضاري و الديني الإسلامي من بغداد التي دحرتها

---

[1] راجع ذلك في المقدمة التي وضعها شهاب الدّين النّجفي المُرعشي ، لكتاب : حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب . بغداد مكتبة المثنى ، الجزء الأوّل ، ص ب وج.

قوات المغول قبل قرنين ونيف، إلى سلطة العثمانيين [1] وبعد فتحهم للقسطنطينية على يد محمد "الفاتح" عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م،و نزوعهم نحو الاهتمام بالمدنية الأوروبية امتدت سلطة العثمانيين إلى مصر وسوريا في أوائل القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وما انجر عن ذلك من اهتمام واستحواذ العثمانيين – مراكز و أفراد– على ذخائر المخطوطات، التي لم تكن بالنسبة إليهم ذات قيمة علمية و حسب ،بل أيضا لأنها كانت وسيلة روحية للارتباط بالدين الإسلامي.و هو الأمر الذي جعل من امتلاك مخطوطة عربية عند الجندي أو التاجر أو الطالب العثماني بمثابة الذود عن الإسلام و التبرّك به.

ومما زاد الشعور بذلك عند عامة الناس من الأتراك حينذاك ،تسلم سليم الأول في نفس السنة التي يفتح فيها العثمانيون مصر "٩١٣هـ/١٥١٧م مفاتيح الكعبة و يُعلن نفسه خليفة على المسلمين، بعد أن أكره آخر خلفاء العباسيين الرمزيين " المتوكل على الله" على التنازل على الخلافة ..

وبذلك أحس العثمانيون أنهم ليسوا خلفاء المسلمين وحسب و ما تحمله الخلافة من دلالات دينية و سياسية ، بل أيضا المدافعين الحصينين عن التراث الثقافي و العلمي و الديني العربي الإسلامي ، و أنه من واجبهم الحفاظ عليه من التلف و الضياع.و ليس هذا و حسب بل نشره في البقاع التي تدخلها جيوشهم ، وبذلك أوشك العثمانيون في القرن السادس عشر باسم الخلافة الإسلامية، على تنصيب أنفسهم أسيادا ليس على معظم البلدان الإسلامية و حسب ،بل على أوروبا أيضا.و بعد ذلك بقرن واحد كانوا ما يزالون من القوة بحيث استولوا على جزيرة "كريت" و هددوا "فيينا" و حاربوا الدول الأوروبية جميعها محاربة النّد للنّد..

هذا من الناحية السياسية، أما من الناحية الثقافية فإن المصادر التاريخية تشير إلى أن الخلافة العثمانية قامت بتشجيع بناء المكتبات و المدارس في مدنها الكبرى ، وخاصة في مدينة القسطنطينية ، حيث سعى السلطان محمد الفاتح ست سنوات بعد دخوله إليها لأن تكون أهم المراكز الثقافية في العالم، إذ حول بعض الكنائس البيزنطية إلى مدارس، وأهدى إليها العديد من كتبه المخطوطة.و كانت أول مكتبة أنشأها السلطان محمد الفاتح، هي المكتبة الموجودة بداخل مجمع مسجد الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري. وبعد ذلك أمر السلطان الفاتح بإنشاء المسجد المعروف باسمه في الفترة بين ١٤٦٣ و١٤٧٠ وأنشأ حوله ثماني مدارس، ونقل كافة الطلاب في المدينة

---

[1] قامت الدولة العثمانية عام ٦٨٩هـ/١٢٨٨مفي آسيا الصغرى علىيد عثمان الأول بن ارطغـل،، لكن على الرغم من الإنتصارات التي أحرزتها في شرق أوروبا إلا أنها بعد ذلك ، أي خلال القرنين العاشر و الحادي عشر الهجريين(١٦و١٧ م) عاشت حملات صليبية مدمرة بتدبير من بابا الكنيسة الكاثوليكية ، بغية تقويضها و ارتداد المسلمين عن عقائدهم و خاصة مسلمي أوروبا..

إلى هذه المدارس بعد ان انشا في وسطها مكتبة مركزية لتسهيل وصول الطلاب إلى الكتب والمصادر في كل وقت.

وتقول المصادر التركية والأوروبية عموما(فؤاد سزكين والمستشرق الألماني ريتر على سبيل المثال) بأن عدد الكتب التي أهداها السلطان محمد الفاتح للمكتبة المركزية بلغ ثمانمائة وتسعة وثلاثين كتابا، كما أنشأ مكتبة في قصر طوبقابى ونقل إليها الكتب التي كانت موجودة في أدرنة بعد نقل العاصمة إلى اسطنبول. ولم يقتصر إنشاء المكتبات في العهد العثماني على السلاطين، بل كانت هناك مكتبات أنشأها بعض الولاة ومشاهير العلماء في اسطنبول والمدن الأخرى مثل أدرنة وبورصة و أماسيه وقونيه، ونذكر من هؤلاء العلماء والولاة محي الدين العلائي وعلي باشا العتيق وأحمد جلبي أفضل زاده ومحي الدين جلبي، وغيره [1].

وبفعل الجمع الذي اتخذه العثمانيون جماعات و فرادى سبيلا لتعزيز رفوف مكتباتهم من مكتبات دمشق و القاهرة وغيرهما، بلغت وثائق الأرشيف العثماني التي هي في الأصل مخطوطات يدوية حوالي مائتين وخمسين مليونا،وعدد الكتب المخطوطة في مكتبات تركيا ثلاثمائة ألف، ويزيد عدد المخطوطات باللغة العربية على مائة وستين ألف مخطوطة، وتتوزع المخطوطات العربية في أكثر من خمس وثلاثين مكتبة تابعة لوزارة الثقافة. بينما يبلغ عدد المخطوطات باللغة التركية سبعين ألفا، والفارسية ثلاثة عشر ألفا وهناك مئات المخطوطات باللغات اليونانية والأرمينية والسريانية [2].

لقد توزّعت الأعداد الهائلة من المخطوطات في المدن (التركية) منذ السنوات الأولى لميلاد الخلافة العثمانية حيث أصبح السلاطين و الأمراء و العلماء و الأعيان يتنافسون في اقتناء ونسخ المخطوطات، حتى أمست القسطنطينية (إسطنبول) وأدرنه" Edrine" وغيرهما من الأسواق الرّائجة للكتب و المكتبات يتجّه إليها العلماء و محبّو الكتب من كافة المدن الإسلامية الأخرى ، وذلك لشّهرة و نوعية ورقها و تجليدها الفاخر، إضافة إلى بلوغ خطّاطيها أفقا شكّل مدرسة ذات تأثير كبير في الخطّ و الزخرفة و ما شابههما.

---

[1] كمال أحمد خوجة،" المكتبات العثمانية و المخطوطات العربية و الإسلامية في تركيا" الرياض،المملكة العربية السعودية، لسبت ٢٧ شعبان ١٤٢٦هـ - ١ أكتوبر ٢٠٠٥م - العدد ١٣٦١٣.

[2] في حوار أجرته جريدة الحياة عن طريق محمود السيد الدغيم مع الدكتور نوزت قايا مدير مكتبة السليمانية التراثية في إسطنبول،يصرّح هذا الأخير بأن مكتبة با يزيد العمومية في إسطنبول(نسبة إلى السلطان العثماني بايزيد الذي توفي سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م) تحتفظ بحوالي أحد عشرة ألاف مخطوطة، بينما تحتل مكتبة السليمانية (وهي نسبة إلى السلطان سليمان القانوني المتوفى سنة٩٧٤هـ)المرتبة الأولى من حيث عدد المخطوطات التي تبلغ ٦٧٣٥٩ مخطوطا وتبلغ مخطوطات السليمانية الأم ١٠٣٧ مخطوطة...المصدر: WWW.daralhayat.com./12-2005

ومن المكتبات التركية التي زخرت - ولا تزال- بمئات الآلاف من المخطوطات الإسلامية (العربية والفارسية والتركية) مكتبة "أيا صوفيا -Aya Sofia " بإسطنبول التي تحتوي على ٤٩٩٨ مخطوطة عربية وفارسية وتركية، و مكتبة أسعد أفندي (وهي الآن ملحقة بالمكتبة السليمانية-نسبة إلى السلطان سليمان القانوني) وتضم ٣٧٣٥ مخطوطة، ومكتبة جار الله ولي الدين التي تضم ٢٢٠٥ مخطوطات، ومكتبات أخرى لا تقل شهرة عن الأولى مثل مكتبة خالد أفندي و مكتبة الحميدية،ومكتبة رئيس الكتّاب مصطفى أفندي وغيرها [1].

إنّ وجود هذا العدد الهائل من الكتب المخطوطة بتركيا منذ القرون الأولى للخلافة العثمانية وتناميه مع مرور الأيام و الأزمنة قد هيّا الأرضية للعلماء والكتّاب ليس فقط لضبط الإنتاج العلمي العربي المخطوط في مصادر ببيليوغرافية،بل أيضا لوضع مقدمات وافية عن تاريخ العلوم الإسلامية و حدودها المعرفية.

والحقيقة أن هذه الأعمال - وإن كانت ذات شأن علمي كبير في موضوعها- لم تكن السّباقة في طرق هذا الموضوع.ذلك أن أعمالا عربية أخرى قد كان لها مجال الأسبقية في طرح قضايا الكتب العربية و موضوعاتها ،بتبيان ماهيتها و حدودها ، مثلما هو شأن الكتاب الذي وضعه الفيلسوف العربي "يعقوب بن إسحاق الكندي(المتوفى سنة٢٦٠هـ/٨٧٣م) في كتابيه :" كتاب في أقسام العلم الأنسى" وكتاب في " ماهية العلم وأصنافه" ،و كتب أخرى مشهورة لكتّاب و فلاسفة مثل "إحصاء العلوم للفارابي المتوفى سنة ٣٣٩هـ/٩٥٠م) و غيرها من الكتب و المصنفات [2].

كما عرف التراث العربي نوعا آخر من المؤلفات،يعد مكمّلا له هو ما تضمّنته كتب التراجم والبيبليوغرافية ،التي هي في الحقيقة متجذّرة في تقاليد الكتابة عند

---

[1] راجع القائمة كاملة في: تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين،تر.فهمي أبو الفضل.القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف و انشر،ج١، ١٩٧١، ص.ص:٣٥-٥٧. وتجدر الملاحظة هنا أن عدد المخطوطات التي أشار إليها فؤاد سزكين يرجع تاريخها إلى الستينيات من القرن الماضي، لأن العدد الحقيقي كما يورده نوزت قايا مدير مكتبة السليمانية التراثية في إسطنبول التي تضم الآن المكتبات المذكورة هو: مخطوطات مكتبة السلطان محمد الفاتح وعددها: ٥٢١٩ مخطوطة، ومخطوطات مكتبة أيا صوفيا وعددها: ٥٠٥٣ مخطوطة، ومخطوطات مكتبة أسعد أفندي وعددها: ٣٦٩٦ مخطوطة، ومخطوطات مكتبة حاجي محمود أفندي وعددها: ٤٤٨٧ مخطوطة، ومخطوطات مكتبة جامع لاله لي وعددها: ٣٧٧٥ مخطوطة، ومخطوطات مكتبة شهيد علي باشا وعددها: ٢٨٤٣ مخطوطة، ومخطوطات مكتبة جار الله وعددها: ٢١٩٥ مخطوطة، ومخطوطات مكتبة رئيس الكتّاب وعددها: ١٢٠٣ مخطوطة، ومخطوطات مكتبة رشيد أفندي وعددها: ١١٧٨ مخطوطة، ومخطوطات مكتبة سيزير وعددها: ١٨١٠ مخطوطة..

[2] إن التراث العربي غني بمثل هذه الأعمال منهاعلى سبيل المثال لا الحصر:"رسائل إخوان الصفا و خلان الوفا"(حوالي منتصف القرن الرابع الهجري،" أقسام العلوم العقلية " لابن سينا(ت سنة ٤٢٨هـ) و "رسالة في مراتب العلوم لابن حزم الأندلسي(المتوفى سنة ٤٨٦هـ/١٠٦٤م) .

المسلمين عامة، وهي فهارس الشيوخ أو برامج العلماء، حيث يقوم العالم أو الفقيه بوضع فهرسة عن شيوخه أو الكتب التي قراها أو أجازه إياها أساتذته و شيوخه.
وقد تطوّر هذا الأسلوب من الكتابة عن الكتب و المؤلفين،و هو المتولّد أصلا عن علم الحديث من حيث الإسناد، إلى نوع أكثر تطوّرا هو ما ألفه الأجداد في ميدان البيبليوغرافية.إن هذا النوع من التاليف -وإن كان قليلا في المشرق العربي- قد عرف أوّجه في المغرب و الأندلس، كما هو الشأن بالنسبة إلى ما صنّفه " ابن خير الاشبيلي" (المتوفى سنة ٥٧٥هـ/١١٩٧م)في "فهرسة ما رواه عن شيوخه" أو كتاب " البستان " لابن مريم التلمساني، أو كتاب " الديباج المذهّب" لابن فرحون و ما إلى ذلك من كتب في هذا الباب.
إنّ ما تصدّى له الكتّاب العثمانيون الأتراك ابتداء من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، نوع يتوسّط من حيث الكتابة ما أنجزه المؤلفون و الموسوعيون العرب منذ القرن الثالث الهجري (الكندي مثلا) إلى القرن السادس الهجري و ما بعده (ابن خير الأشبيلي مثالا)، حيث يعمدون قبل ضبط الكتب المخطوطة ضبطا بيبليوغرافيا مع محاولة للتعريف بالكاتب (إن وُجد)،إلى وضع مقدمات حول تاريخ العلوم الإسلامية والتعريف بماهيتها و حدودها..

ولعلّ هذه الصبغة المتبعة في التأليف عن الكتب و الكتابة في العلوم الإسلامية عند المؤلفين" الأتراك" من مميزات الكتابة في هذا النوع خلال العصر العثماني كلّه.
وتكمن أسباب هذا النزوع في الظروف العامة للكتابة و أنواعها عند المسلمين عامة ابتداء من العصر المسمّى بـــ"عصر الانحطاط"، الذي اتسّم بالموسوعية في التأليف،حيث حوت الكتب الموسوعية تعريفات بالكتب والمفاهيم التي شكّلت الثقافة العربية الإسلامية أو التأريخ لها باعتبارها إنتاجا علميا و معرفيا ينتمي إلى الماضي، وأن الأسباب المحرّكة له لم تعد موجودة في الواقع الإسلامي آنذاك. وقد أرجع البعض فكرة الموسوعات ابتداء من القرن الثامن الهجري إلى الهجمة الشرسة التي تعرض لها العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري وسقوط بغداد في أيدي التتار وتدمير مكتباتها..و هو الأمر الذي حفز العلماء العرب على إصدار الكتب الموسوعية، مثل "نهاية الأرب" للنويري ، ثم كتاب "مسالك الأبصار" لابن فضل الله العمري، وكتاب "صبح الأعشى" للقلقشندى، وكتاب "مباهج الفكر ومناهج العبر" للوطواط و غيرها..

إن نزوع الكتّاب "الأتراك" نحو الموسوعية، وتسجيل أسماء الكتب ومؤلفيها، مما يوجد في خزائن ومكتبات اسطنبول و غيرها، لم يخرج عن الإطار التاريخي العام والشعور ذاته الذين دفعا بالموسوعيين العرب الأوائل إلى هذا النوع من التأليف.ذلك أن المسلمين و الحضارة الإسلامية عامة مع بداية القرن العشر الهجري ،كانت عُرضة للهجمات الأوروبية المسيحية أيضا.

لقد برز العديد من المؤلفين والكتّاب " الأتراك" مولدا أو إقامة طيلة القرون الإسلامية وأبدعوا في المجالات المختلفة للفنون الإسلامية، لكنهم ابتداء من القرن العاشر الهجري سوف ينتهجون أسلوبا متميزا من الكتابة هو الكتابة البيبليوغرافية الموسوعية، التي تقوم – بالإضافة إلى ما سبق ذكره – على البحث الميداني عن الكتب المخطوطة في المكتبات والخزائن من أجل وضعها في حوامل تسهّل عملية الإطلاع من جهة، وتكون رافدا للعلماء وطلاب العلم للتمييز بين المؤلفين المسلمين من جهة أخرى..

ومن هؤلاء يمكن ذكر ما أنجزه "ملا لطفي" المتوفى سنة ٩٠٠هـ،الموسوم ب"المطالب الإلهية" و الذي خدم به خزانة كتب بايزيد الثاني العثماني، و تلاه العالم أحمد بن مصطفي الشهير بـ"طاشكبري زادة " المتوفى سنة٩٦٨ هـ الذي صنّف كتاب "مفتاح السعادة و مصباح السيادة في موضوعات العلوم ". و ما ألّفه الشيخ محمد أمين بن صدر الدين الشرواني المتوفى سنة ١٠٣٦ هـ، الذي جمع كتاباً للسلطان أحمد العثماني أورد فيه ثلاثة وخمسين علماً من أنواع العلوم العقلية و النقلية سماه " الفوائد الخاقانية الأحمدية الخانية" ورتبه على مقدمة وميمنة وميسرة وساقة وقلب، على نحو ترتيب جيش السلطان. المقدمة في ماهية العلم وتقسيمه.. والقلب في العلوم الشرعية.. والميمنة في العلوم الأدبية والميسرة في العلوم العقلية ــ وقد أورد منها ثلاثين علماًــ والساقة في آداب الملوك. و إنما اقتصر على ذلك العدد ليكون موافقاً لعدد (أحمد)، وهو اسم السلطان على حسب أبجد. ثم يأتي بعد هؤلاء مصطفى بن عبد الله الشهير بين أقرانه بكاتب جلبي، و المعروف عند الجمهور بـ"حاجي خليفة" المتوفى سنة ١٠٦٨هـ الذي أنجز عملا ضخما تحت عنوان "كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون".و ما كتبه عبد اللطيف بن محمد رياضي زادة المتوفى سنة١٠٧٨هـ في هذا الباب و الموسوم بـ" أسماء الكتب"، الذي ظهر في نفس الفترة التي ظهر فيها كتاب "كشف الظنون" لحاجي خليفة..ورغم قيمة هذا الكتاب العلمية ، وكونه أحد الكتب البيبليوغرافية التي ظهرت في العصور الإسلامية المتأخرة، فإنه لم يعرف شهرة سابقيه .

الحقيقة أن الأعمال العلمية " التركية"الأصل أو المنشأ التي اهتمت بضبط التراث العلمي العربي الإسلامي بين القرن العاشر و الثاني عشر الهجريين لا تعدّ و لا تحصى،و الحديث عنها كلها أو معظمها يتطلّب العشرات من المقالات و الكتب.لذلك سوف أقتصر في هذه المقالة على نموذجين ،أرى أنهما الأشهر مما صنّفه الكتّاب و العلماء العثمانيون الأتراك في هذا الباب من العلوم، وهما :مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبري زادة، و كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون لحاجي خليفة.

١- "المفتاح" لطاشكبري زادة [١]:

على غير العادة في مثل البحوث عن الشخصيات العلمية العربية أو الإسلامية ،لم نجد صعوبة كبيرة في التّعرف على ترجمة طاشكبري زادة ، بحيث كان هو نفسه المصدر الرئيسي لذلك ، إذ تحدّث عن نفسه بإسهاب في خاتمة كتابه : " الشّقائق النُّعمانية في علماء الدّولة العُثمانية" [٢]، وذلك تحت عنوان: ترجمة مؤلف الكتاب ،الّتي يقول فيها : ".. و أنا العبد الضّعيف العليل المحتاج إلى رحمة ربّه الجليل أحمد بن مصطفى بن خليل (..) المشتهر بين الناس بطاشكبري زادة (..) ثم إنّي وُلدت في اللّيلة الرّابع عشرة من شهر ربيع الأوّل سنة إحدى و تسعمائة (٩٠١) ولمّا بلغت سن التّميز انتقلنا إلى بلدة أنقرة ,فشرعنا هناك في قراءة القرآن العظيم ,و عند ذلك لقبني والدي بعصام الدين و كنّاني بأبي الخير."[٣]

وبعد ختمه للقرآن الكريم ينتقل مع أسرته إلى مدينة "بروسة" الّتي يُعرف بها أيضا,حيث تعلّم اللّغة العربية و آدابها. و قد سرد في ذلك، أسماء شيوخه و أقسام الكتب التي تعلّمها عليهم. و بعد أن أتّم فترات تعليمه و أصبح مهيأ للإجازة، أجازه علماء كثيرون، منهم "الشّيخ محمد التّونسي مولدا المغوشي شهرة " ..الّذي أجازني إجازة ملحوظة مكتوبة أن أروي عنه التّفسير و الحديث و سائر العلوم و جميع ما يجوز له و يصح عنه رواية, و هو يروي عن شيخه ولي الله شهاب الدّين أحمد البكّي المغربي.." [٤]، و قد عمل طاشكبري زادة، بعد ذلك مدرسا ثمّ قاضيا في العديد من المدارس و المناصب، ذكرها جميعها بتواريخها [٥]، و قد ألّف الرّجل، العديد من الكتب في التّفسير و أصول الدّين و العربية، " ينيف على ثلاثين"، أهمها كتابان هما: مفتاح السّعادة، و الشقائق النُّعمانية [٦]، وتوفي فيما يذكره حاجي خليفة، سنة اثنين و ستين و تسعمائة (٩٦٢) [٧]،مخلّفا وراءه ، أعظم مصنَّف في مجال البيبليوغرافية الإسلامية. [٨]

---

[1] يذكر حاجي خليفة في كشف الظنون، ج٢، ص١٧٦٢، هذا المؤلف الشهير, كما يذكر مؤلفا آخر هو: مفتاح العلوم، المنسوب الى سراج الدّين أبي يعقوب يوسف بن عليّ السكّاكي، المتوفى سنة ٦٢٦هـ، و هو تصنيف للعلوم العربية: علم المعاني و البيان، و الإشتقاق والنّحو و ما إلى ذلك.

[2] طاشكري زادة، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، بيروت:دار الكتاب العربي.١٩٧٨م، ١٣٩٥ه، و قد ضمّنها سير ٥٢٢ من علماء و شيوخ الطرق؛ مقسّمة إلى عشر طبقات، التزم فيها بذكر علماء الدولة العثمانية تحت أسماء سلاطينها.

[3] المصدر نفسه، ص٣٢٦.

[4] المصدر نفسه، ص٣٢٧.

[5] أولا بمدرسة ديمهتوقة في ٩٣١هـ و القسطنطينية في سنة ٩٣٣ه، ثم بإسحاقيا في سنة ٩٦٣ه.

[6] يذكر طاشكبري زادة في ترجمته المذكورة ص٣٢٠، أنّه قد وقعت له عارضة الرّمد و دام ذلك شهورا و أضرّت بذلك عينيه، فأملى كتبه على بعض أصحابه. وأغلب الظن أن "المفتاح" كان من بين الكتب التي أملاها.

[7] حاجي خلبفة، كشف الظنون، ج٢، ص١٧٦٢.

ولم يختلف شأن طاشكبري زادة، عن شأن العظماء، في محاولة النّيل منه ومن سمعته، فأثير لغط حول مؤلفه المذكور، و رُبط بوجود عمل مماثل لعمله هو مؤلف الأرنيقي (المعلومات بشأنه شحيحة) تحت عنوان "مدينة العلوم" الذي اعتمد عليه محمد صديق خان صاحب كتاب "أبجد العلوم" إعتمادا كبيرا و أشار إليه في مواضع عديدة.

يذهب شعبان خليفة إلى القول، بشأن العملين "و الكتابان المخطوطان موجودان في دار الكتب المصرية و من يقارن بينهما فعلا، يجد أنّهما لا يختلفان إلاّ في بعض ألفاظ قليلة و زيادات طفيفة جدا و تقديم و تأخير لا يشعر به القارئ. و ربّما كان كتاب "مدينة العلوم" مجهولا فانتحله طاشكبري زادة و غيّر عنوانه، و ربما يكون العكس و القضية تحتاج إلى بحث مستقل.."[1].

وبصرف النّظر عن ذلك فإنّنا أمام عمل "أنموذج " من الكتابة البيليوغرافية الإسلامية المتميّز ، يتّسم كتاب "المفتاح " بالموسوعية ،إذ يشمل بالإضافة إلى المعلومات البيليوغرافية عن المصادر المشهورة في عصره ، مقدّمات وافية عن تاريخ العلوم الإسلامية .

ولقد قسّم المؤلف الكتاب إلى أربعة مقدّمات و سبع دوحات. أمّا المقدمات الأربع فتدور حول الحث على التعلّم و فضيلة العلم و أخلاقيات التّعليم و طرقه،و قد استغرق ذلك المقدّمات الثلاث الأولى التي لخّص فيها منهج العلماء المسلمين التربوي ،بينما توسّل في المقدمة الرّابعة إلى ذكر هدف المؤلّف من تأليف كتابه و أسباب اتّباعه لتنظيم المعرفة الذي وضعه [2]. ويتبيّن ذلك جليّا من خلال هذه المقدمات الأربع، أن المؤلف قد استثمر تجاربه في التّدريس، كما في رحلته حول التعلّم و التحصيل العلمي الذي استمر معه طوال حياته، كما تشير إلى ذلك، ترجمته.

لقد بنَى المؤلف تقسيمه للعمل، على أساس فلسفة واضحة، تكمن في حيثيات نظرته إلى التّحصيل العلمي والمعرفي، التي تقع في مجالات أربع أساسية هي: الكتابة و المعلومات المتعلّقة بها، فالعبارة أو اللّغة، فالأذهان أو ما يتحصل عليه المتعلم ذهنيا و تأمليا، ثم الأعيان أو المعاينة، و تدخل ضمنها أدوات المعرفة الحسية [3].

---

[1] شعبان خليفة، البيبليوغرافيا أو علم الكتاب، ص٢١٦.

[2] راجع ذلك في: مفتاح السعادة و مصباح السيادة، ٤مجلدات تحقيق عبد الوهاب عبد النّور و كامل كامل بكري، القاهرة: دار الكتبالحديثة، ١٩٦٨، ج١، ص٤-١٦.

[3] الكتابة، العبارة، الأذهان، الأعيان. هي العبارات الي استخدمها المؤلف. و تأتي مرتبّة ترتيبا منطقيا, كما أتت العلوم مرتبة بهذه الصيغة في المؤلف المذكور. و قد سار ابن النديم إجمالا، حسب هذا الترتيب، حيث بدأ بالكتابة و الكتابات في المقالة الأولى، و اللغويين و النحويين (العبارة) في المقالة الثانية، في الفلسفة و العلوم القديمة (الأذهان) في المقالة السابعة ثم أخبار الكيميائيين و

وعلى أساس هذا التدرّج، المبني على ما لاحظه المؤلف في سير البحث و التحصيل العلمي عند المسلمين عامة، قسّم العمل إلى سبع دوحات في طرفين [1]، ست منها في طرف، و السّابعة في الطّرف الثاني. و قد انقسمت كلّ دوحة إلى شعَب و كلّ شعبة إلى فروع، وتنقسم الفروع أحيانا إلى أفنان و الأفنان إلى عناقيد..

و يبدو من ذلك، أنّ طاشكبري زادة، كان واعيا بهذا التقسيم المعرفي للعلوم، حيث:

أوّلا- وضع العلوم الخطية في الدوحة الأولى، و قسمها إلى شعبتين، الأولى في العلوم المتعلقة بكيفية الصّناعة الخطية (أقلام-خطوط-أدوات). أمّا الثانية، فقد خصّها لإملاء الحروف المفردة.

ثانيا- بينما وضع العلوم المتعلقة بالألفاظ في الدّوحة الثانية.وقسّمها إلى ثلاث شعب هي: ما يتعلق بالمفردات في الشعبة الأولى، وما يتعلق بالمركّبات في الشّعبة الثانية. و ما يدخل ضمن فروع العلوم العربية في الشعبة الثالثة.

ثالثا- أمّا الدوحة الثالثة فقد خصّها للعلوم الباحثة عمّا في الأذهان (أو المعقولات). و قد قسّمها بدورها إلى شعبتين: الأولى لعلوم آلية تعصم من الخطأ في الكسب. والثانية في علوم تعصم في الخطأ في المناظرة و الدّرس.

رابعا- فالدوحة الرّابعة في العلم المتعلّق بالأعيان، و قد وضعها في عشر شُعَب:الشُّعبة الأولى في العلم الإلهي، و الثانية في فروع العلم الطّبيعي، و الثالثة في العلم الطّبيعي،والرّابعة في فروع العلم الطّبيعي، و الخامسة في فروع العلم الطّبيعي، و السّادسة في العلوم الرياضية، السابعة في فروع علم الهندسة، و الثامنة في فروع علم الهيئة، و التاسعة في فروع علم العدد، أمّا الشعبة العاشرة في فروع علم الموسيقى.

خامسا- الدّوحة الخامسة في العلوم الشرعية، وقد قسّمها إلى خمس شُعب، الأولى في علم الأخلاق، و الثانية في علم تدبير المنزل، و الثالثة في علم السّياسة، فالرّابعة في فروع الحكمة العملية.

سادسا- الدّوحة السادسة: في العلوم الشّرعية،وقد وضعها في ثمان شُعَب هي:علم القراءة في الأولى، و علم رواية الحديث في الشعبة الثانية، و علم تفسير القرآن في الثالثة، و علم دراية الحديث في الرابعة، والخامسة في علم أصول الدّين، و السادسة في علم أصول الفقه؛ و السّابعة في علم الفقه، أمّا الشعبة الثامنة و الأخيرة فخصّها لفروع العلوم الشرعية.

الصنعويين (الأعيان) في المقالة العاشرة. أمّا المقالات الأخرى، فتشترك أجزاء منهاا في هذا التّرتيب.

[1] الطرف أو الجزء، و تدخل في الطّرف الأوّل، العلوم التي لا يُتحصّل عليها إلاّ بالنظر. أمّا الطرف الثاني و هو الدوحة السابعة، فتدخل فيه العلوم التي يُتحصّل عليها بالتصفية(أي النّقل و الإسناد.)

أمّا القسم الثاني (أو الطرف الثاني) فلم يشتمل إلاّ على دوحة واحدة، هي الدّوحة السابعة من حيث الترتيب، و قد وضع فيها ما له علاقة بعلوم الباطن، و قسّمها إلى أربع شُعب هي: العبادات في الأولى، العادات في الثانية، ربع المُهلكات في الثالثة، و رُبع المنجّيات في الشعبة الأخيرة.

أمّا الطريقة المتّبعة في عرض مادته العلمية، حسب هذه الجزئيات، أو هذه الموضوعات التي زادت على ثلاثمائة موضوع، هي أن يعطي المؤلف معلومات ضافية عن حدود كل موضوع و ماهيته و حدوده و أهدافه، ثم يقدّم المؤلفات أولا، ثم المؤلفات الأصلية، و من ثم المختصرات و الشروح، مع الترجمة لمؤلفيها و ذكر أعمالهم.

ولعلّ من يتصفّح هذا الكتاب، و لديه معلومات عن كتب التّصنيف الإسلامية مثل كتاب إحصاء العلوم للفارابي و غيره، و إلمام بالمؤلفات البيبليوغرافية مثل الفهرست ،قد يخرج بفكرة مفادها، أن "مفتاح السعادة" لطاشكبري زادة، قد تناول المجالين معا، و هو الأمر الذي دفع ببعض الدارسين، إلى استبعاد هذا الكتاب عن عداد الأعمال البيبليوغرافية الإسلامية، أو على الأقل وضعه في ذيلها.و ربّما يكمن ذلك، في أنّ واضع هذا الكتاب، قد أبدع طريقة جديدة في مجال البيبليوغرافيا، تأخذ في الحسبان، من خلال المزج بين أسلوب التّصنيف المعرفي، و الحصر البيبليوغرافي، التأريخ للفكر و المعرفة، و مصادرهما المتنوعة [1].

طُبع هذا الكتاب لحدّ الآن، طبعتان، كانت الأولى في حيدر آباد الدّكن بالهند عن طريق دائرة المعارف النّظامية في ثلاثة مجلدات، فيما بين سنتي (١٣٢٨ه-١٣٥٦هـ), المجلد الأوّل و الثاني اللذين يضمان الطّرف الأوّل من الكتاب، أي ست دوحات، طُبعا و نُشرا سنة ١٣٢٨-١٣٢٩، أمّا المجلد الثالث الذي يضم الطّرف الثاني، أي الدوحة السابعة، فقد نُشر سنة ١٣٥٦.و تتميّز هذه الطبعة من خلوها من الكُشّافات، لكنّها ذات شروح و تعليقات.

أمّا الطّبعة الثانية، والتي استعنّا بها في هذا البحث، فهي تلك التي قام بتحقيقها بالقاهرة الأستاذان: عبد الوهاب أبو النّور، و كامل كامل بكري سنة ١٩٦٨، عن دار الكتُب الحديثة، و تقع في أربعة مجلدات، خُصّص الرّابع منها للكشّافات: كُشّاف الموضوعات، و كُشاف العناوين، و كُشّاف المؤلفين و الأعلام، و كُشّاف الأماكن و البُلدان.

٢- "كشف الظنون" لحاجي خليفة:

لعلّه من قبيل التوطئة، القول بأنّ ما أنجزه حاجي خليفة في هذا العمل الضّخم، يعدّ أشمل و أكبر ما أنتجه المسلمون في مجال البيبليوغرافيا ؛ إذ لم يُسجّل ما استطاع

---

[1] لقد بلغ عدد الكتب التي ذكرها المؤلف في كتابه ٢٥٧١ كتابا، و عدد المؤلفين ١٠٨٣ مؤلفا. و قد تركز ذكرالإنتاج الفكري خاصة في الطّرف الأوّل من العمل (أي الدوحات الست الأولى.).

تجميعه من مؤلفات إسلامية منذ بدء حركة التأليف العلمية و حسب، بل عرّج أيضا نحو تعريف العلوم و بيان حدودها و ماهيتها ، كلياتها و جزئياتها..فغدا بذلك من الموسوعات المتخصصة في مجال الكتاب العربي الإسلامي و مرجعياته، بالنّسبة للباحثين، في كل مجالات الاختصاص..

ومن أجل التّقرب، و لو بنوع من العُجالة، من هذا المؤلف العالم و موسوعته البيبليوغرافية، علينا أوّلا بالإلمام ببعض جوانب حياته، و التّعرّف على رحلته العلمية، حتّى يتسنّى لنا فهم ما ألّفه في هذا الميدان. فإذن, من هو حاجي خليفة؟

من الأعراف العلمية في مثل هذا الأمر، أن ينكفيء الباحث عند بحثه عن شخصية علمية من هذا الطراز، على ما كتبه المؤرخون المعاصرون له أو اللاّحقون به.غير أن الواقع هو أنّك لا تجد ثمة ما يعوّل عليه منهم. ذلك أن المُحبّي مثلا(المتوفى سنة ١١١١هـ)الذي اشتهر بكتابه:"خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" لم يُترجم لهو لم يذكر حتّى مؤلفه.

أمّا الذين وضعوا ذيولا لكشف الظنون، و هم كثر فلم يذكروا شيئا ذا شأن فيما يخص ذلك [1]. لذلك لم نجد بدّا غير البحث عمّا كتبه "حاجي خليفة" نفسه عن حياته.

هو مصطفى بن عبد الله، المولود في أواخر ذي القعدة سنة ١٠١٧ه بالقسطنطينية "الحنفي المذهب، الإشراقي المشرب، الشّهير بين علماء بلده(تركيا)بكاتب جلبي و بين أهل الدّيوان بحاجي خليفة, أمّا وجه اشتهاره بكاتب جلبي، "أنّه كان يعمل كاتبا في دائرة الدفاتر السلطانية في الجيش العثماني من سنة ١٠٣٥-١٠٤٧. و جلبي في التركية تعني: الفاضل أو الكامل أو السابق " [2]، أي أنّ كاتب جلبي تعني الكاتب الفاضل. أمّا سبب شهرته بحاجي خليفة أيضا، فيعود ذلك إلى أدائه فريضة الحجّ، فيما بين سنتي ١٠٤١-١٠٤٣هـ ، حينما كان مقيما بمدينة حلب، ضمن البعثة العسكرية التّي خرجت مع الجيش العثماني؛ و زيدت شهرته بخليفة، لارتباط هذا اللّقب بمن يشتغل معاونا أو وكيلا في إدارة المالية أو كُتّاب الإنشاء.. و قد وصل ما ألّفه فيما يذكره له بعض الباحثين نحو عشرين مؤلفا؛ منها، كتابه:" سلم الوصول إلى طبقات الفحول" و كتابه:"ميزان الحق في اختيار الأحق"، تناول في الأوّل حياته منذ وُلد إلى

---

[1] من هذه الذّيول، ما ألفه: اسماعيل باشا البغدادي (المتوفى ١٣٣٩ه). في كتابه "ايضاح المكنون" .

[2] براهيم، الأبياري , "كشف الظنون" ، ثرات الإنسانية، المجلد الثالث، لسنة ١٩٦٥، ص٤٠٠ (و قد اشتهر بذلك عدد من علماء تركيا، ذكرهم طاشكري زادة، في الشقائق النعمانية في علمـــاء الدولـــة العثمانية.)

ما بعد سنة ١٠٣٥ بقليل؛ و ساق في خاتمة كتابه الثاني، ما تبقى من ذلك إلى غاية ١٠٦٧ه؛ و هي السّنة التي تُوفي فيها [1].

تحصيله العلمي و مؤلفاته:

لقد استغلّ حاجي خليفة مكوثه مع الجيش خارج الأستانة, في حلب أو في بغداد و همذان، للإطّلاع على ما جادت به مجالس العلم و دكاكين الوراقين,وسجّل في أثناء ذلك جلّ ما تيسّر جمعه من كتب و مؤلفات.و عند رجوعه إلى بلده و اتصاله بعلمائها و شيوخها، واصل ما بدأ فيه. و تمكّن من الإطلاع على العديد من المؤلفات المختلفة، مثل تفسير البيضاوي، و إحياء علوم الدّين للغزالي و غيرهما، أمّا في سنة ١٠٤٥هـ، " أحسّ حاجي خليفة كيف تُصرفه مهام الجيش عن العلم فاستقال من الخدمة. و أخذ في ملازمة مشهوري العلماء، و بقي على ذلك عشر سنين و كان عمره إذ ذاك نحوا من ثمانية و ثلاثين عاما." [2].

وتواصل اهتمام حاجي خليفة بتدوين أسماء الكتب التي كان يقع عليها عند الورّاقين في أثناء مكوثه بحلب. فوجد في مكتبات الأستانة الشيء الكثير.. و قد بدأ مشروعه البيبليوغرافي في تلك الأثناء، أي خلال فترة تحصيله العلمي و وقوفه على العلوم و المؤلفات المشهورة في زمانه.

والغريب فيما تقرّره بعض الدراسات التي تناولت ترجمته، أن تآليفه الكثيرة، التي تناهز العشرين مؤلفا، لم تكن ضمن الكتُب التي أحصاها في الكشف، إلاّ فيم ندر.

لقد ألّف بالإضافة إلى ما تمّ ذكره "تقويم التواريخ" "كتاب الفذلكة" و"كتاب بهان نما" في الجغرافيا و "علم المسالك و الممالك" باللّغة التركية، ثمّ كتاب "التّعليقة على تفسير البيضاوي"وغيرها [3].

الهدف من وضع كتاب "كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون":

كتب حاجي خليفة في سنة ١٠٦٢هـ ، مؤلفا سمّاه "سلم الوصول إلى طبقات الفحول"وهو في التّراجم ذكر فيه أن الكتب المؤلفة في التراجم و الطّبقات ، بعضها فيه

---

[1] لتعذر الحصول على هذين الكتابين الناذرين، تمّ الإعتماد في ذلك، على ما نقله كل من شهاب الدين النجفي الرعشي، كاتب مقدمة الكشف، و ما كتبه بزرك الطّهراني، في ذيل كشف الظنون المطبوع سنة ١٩٦٧ ص٣٩٥-٤١٢بطهران (الوقع في الجزء الثاني من هدية العارفين، لإسماعيل باشا البغدادي، و يبتبع ١١٦ صفحة). ثم ما نقله ابراهيم الأبياري في المرجع المذكور ، بالإضافة الى تمّ لحاجي خليفة أن ذكره في مقدمةكابه"كشف الظنون"، ص١٣-١٨.

[2] محمد شرف الدّين يالتقيا, ترجمة كاتب جلبي,كشف الظنون,ج١,ص١٣- ١٤ . (و اشتهر من أساتذته : الشّيخ قاضي زادة محمد بن مصطفى الباليكسري و الذي ألف حاجي خليفة كتابا عنه'يردّ فيه على من طعن فيه,هو: " ميزان الإعتدال"..)

[3] الشّيخ شهاب الدّين النّجفي المرعشي,المقدمة, كشف الظنون.ج١.ص١٦.

إسهاب و آخر فيه إيجاز و اختصار، فأراد أن يجمع كتابا وسطا يُثبّت فيه المُهم، فكان هذا الكتاب أي" الكشف" الذي جمع فيه أساطين الأوائل و الأواخر مع بيان مبهمات الأسماء و الأنساب، و رتّبه على حروف الهجاء و جعله على مقدمة و قسمين و خاتمة. وجعل المقدمة في أمور عامة، كتعريف التاريخ و أقسامه و فائدته و ما ورد في فضله، و تحقيق معنى العلم و الكنية و اللقب.

ومن ذلك، نستشف أن ما ينطبق على كتب التراجم، التي رأى أنها تحتاج إلى دقة أكثر، وتناول موضوعي أشمل، يمكن أن ينطبق على كتب التأليف البيبليوغرافي. إذ لا يخفى على واحد في مثل اطّلاعه الواسع ، واشتغل من أجل إنجاز كتابه "الكشف" عشرين سنة، و عَرَف من المؤلفات في هذا المجال العشرات، سواء تلك التي تناولت تنظيم العلوم، أو حصر المؤلفات؛ أن العمل الكامل، لم يُنجز بعد. و ذلك اعتقادا منه أنّ :"من أهم العلوم ,علم أحوال الكتب فإنّه أولى مرحلة من مراحل البحث و التّنقيب و من لم يعلم ما ألّف من الكتب في أيّ موضوع كان ,يطول عليه أمد بحثه بدون أن يحصل منه على طائل، و علم موضوعات العلوم من أنفع الوسائل و أجداها لأن من يعرف الموضوع إجمالا تحصل عنده البصيرة "[1].

وقد رأى أنّه لما كان " كشف دقائق العلوم و تبيين حقائقها من أجلّ المواهب، وأعز المطالب، قيّض الله سبحانه و تعالى في كل عصر علماء قاموا بأعباب ذلك الأمر العظيم، و كشفوا عن ساق الجد و الاهتمام في التعليم و التّفهيم (..) فمنهم من استنبط المسائل من الدلائل فأصّلَ و فرّعَ، و منهم من جمّع و صنّف فأبدع.." [2]، إلى أن يبيّن حاجي خليفة مقصده، من إنجاز عمله المذكور، فيقول:"..إذا العلوم و الكتب كثيرة والأعمار عزيزة قصيرة، والوقوف على تفاصيلها متعسّر، بل متعذّر. و إنّما المطلوب ضبط معاقدها و الشعور بمقاصدها، و قد ألهمني الله تعالى جمع أشتاتها و فتح عليّ أبواب أسبابها. فكتبت ما رأيت في خلال تتبع المؤلفات، و تصفّح كتب التواريخ و الطبقات.. " [3].

و ممّا تقدم، نستشف أن حاجي خليفة، قد أفصح في أثناء حديثه السّابق عن الهدف من تأليفه كتاب "الكشف" و تبيان المصادر التي اعتمد عليها في ذلك، فكانت كما قال , شاملة لدُور الورّاقين و المكتبات وخزانات الكتُب، وما تمّ تأليفه في هذا المجال قبله[4].

تبييض (الكشف) و ذيوله :

---

[1] م.ش، بالتافيا، المصدر السابق، ص١٧.

[2] حاجي خليفة، كشف الظنون، المقدمة، ج١، ص١.

[3] المصدر نفسه، ص٢.

[4] م.ش يالتقيا ، ترجمة كاتب جبلي ، ص١٥.

لقد مرّ بنا أن حاجي خليفة بدأ تدوين كتابه (أو أسماء الكتب) أيام إقامته بحلب في سنة ١٠٤٣هـ وعند رجوعه منها إلى إسطنبول ، سنة ١٠٤٥ هـ ، شرع في إتمام المهمة التي كان ابتدأها ، وهي مهمة (تدوين أسماء الكتب التي ألهمها الله إياه (..) كان يكتب أسماء الكتب التي يجدها عند الورّاقيين الكُتُبيين وفي خزانة الكتب بها و كان ينقب عن الكتب ولا سيما كتب التاريخ و الطبقات و الوفيات (..) و يقتني المؤلفات ، وساعده على ذلك أموال ورثها من بعض قرابته سنة ١٠٤٧ه حتى صرف لشراء الكتب نحو ثلاثمائة ألف عثماني ..)، وكان في أثناء ذلك أيضا يقوم بتأليف كتب أخرى ، مثل (تقويم التاريخ) ويلقي الدّروس بكليته، وواصل هذا الأمر طيلة سنوات عديدة ، اشتغل فيها ، بالإضافة إلى ذلك، بمطالعة الكتب و التعمّق في العلوم ، وداوم على هذه الحال مدة عشر سنين " لا ينام في بعض الليالي حرصا على كتاب حتى يطلع الفجر ، وكان دأبه في العلم إرجاع الكثرة إلى الوحدة و إحاطة الكليات و ضبط الأصول .." [1].

ويجيء على لسان حاجي خليفة في مقدمة لهذا الكتاب (الكشف) ، فيبيّن فيها ارتباط تسويد الكتاب بمرحلة الشّباب بقوله : ".. فكتبت ما رأيت في خلال تتبع المؤلفات وتصفّح كتب التواريخ والطبقات، ولما تم تسويده في عنفوان الشباب ، بتيسير الفيّاض الوهّاب ، أسقطته عن حيز الاعتداد، وأسلبت عليه رداء الأبعاد غير أنّي كلّما وجدت شيئا ألحقته إلى أن جاء أجلُه المقدر في تبيضه ، وكان أمر الله قدَرا مقدورا ، فشرعت فيه بسبب من الأسباب ، وكان ذلك في الكتاب مسطورا ..)[2].

ويُرجح بعض الّذين درسوا كشف الظنون ، أن تبييض الكتاب ، قد كان فيما بين ١٠٦١هـ و ١٠٦٢هـ ، ومردّ هذا الاعتقاد أنّ بعض الكتب التي ألّفها هذا الكاتب، قد وردت في الكشف ، ومنها كتابه (تحفة الأخبار) الّذي كان تأليف سنة ١٠٦١هـ[3].

و بذلك يمكن القول بأن الجهد الذي صرفه المؤلف من أجل إنجاز مؤلفه ، بقي أعواما طويلة تقرب من العشرين ، و يظهر أيضا ، أن تبيض الكتاب لم ينته في حياة الرّجل ، بل استمر بعده ، ودليل ذلك ، ما كتبه تلميذُ تلميذه ، جار الله وليّ الدّين ، على ظهر النّسخة المُسوَّدة ، حيث قال: "إعلم أنّ هذا الكتاب المسمّى بكشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون لأستاذ أستاذي حاجي خليفة المشتهر بكاتب جلبي الاستنبولي ، بيّضه بعدما سوّده إلى آخر الكتاب إلى كلمة دروس من حرف الدّال المهملة ، انتقل إلى رحمة الله تعالى سنة ١٠٦٧ ، و بقي الكتاب من كلمة دروس في

---

[1] المرجع نفسه، ص.١٦.

[2] حاجي خليفة, المصدر.ج١,ص٢ .

[3] لقد ألف حاجي خليفة العديد من المؤلفات ,يصل إلى العشرين,لكن ما قيّده في الكشف لا يتعدّى الأربعة:الفذلكة,١٠٥١ جهان نما ,١٠٥٥هـ,تقويم التّواريخ,١٠٥٨ه.راجع ذلك في ذيا كشف الظنون لبزرك الطّهراني ,المطبوع في نهاية الجزء الثّاني من هدية العارفين لإسماعيل البغدادي.طهران:١٩٦٧(٣٨٧),ص٨.

مسودته بلا تبييض ثم اجتمع ستة رجال فبيّضوه ،لكن لم يُبيضوه كما ينبغي و المُسوّدة في هذا المجلد بخط المؤلف المسوّد رحمه الله تعالى ، وقد رأيت مُبيّضة بخطه إلى كلمة دروس من حرف الدال في مجلد كامل موجود في بلدة قسطنطينية [1].

ويتبين من خلال ما كتبه جار الله و لي الدين أيضا (على ظهر المُسوّدة المذكورة) ، أنّه بدئ منذ سنة ١٠٩٦هـ ، في اختصار كتاب الكشف ، و تذييله ، إذ يذكر :"و لقد اختصر هذا الكتاب من جهة اللفظ و زاد عليه أسام كثيرة أستاذنا المتبحّر في جميع العلوم و الفنون السيّد الحسين العباس النبهاني الحلبي المتوفى بعد خمسة و تسعين وألف في حلب الشبهاء، و ما في أوّل هذا المجلد من حرف الألف إلى كلمة دروس بخط جديد من الكتاب المختصر للأستاذ السيّد ويدل عليه أنّه قال في حرف الألف(إبهاج في شرح ديباجة القاموس للفقير الحسيني العباسي النّبهاني الحلبي)و يدل عليه أيضا زيادات أسامي الكتب على أسامي كشف الظنون يعرفها من طالع هذين الكتابين."[2]

وما يؤيّد ما ذهب إليه جار الله ولي الدين، هو ما كتبه النّبهاني في مقدمة التذكار حيث قال:"فتصدى لجمع ذلك في عصرنا أحد أفضل الأعيان المعروف بحاجي خليفة. فجمع كتابا طويلا سمّاه كشف الظنون عن أسماء الكتب و الفنون طال بالتكرار و انتقل إلى جوار ربّه الكريم قبل تبييضه، فبيضه بعض الفضلاء بما لا يخلو عن ضعف التأليف و عدم تعبير فدال في خلد هذا الفقير تجريده من التّطويل و ضمّ ما فاته من التأليف بتسهيل العبارة و حذف الزوائد (..) و سميته التذكار الجامع للآثار حيث كان جامعا [3].

و ابتداء من هذا التاريخ ، أي تاريخ وضع أوّل ذيل، تمّ فيه تجريد الكشف من الحواشي و النقول، ودأب بعض العلماء المشتغلين بحقل البيبليوغرافيا في وضع ذيول و كتب متعلقة بالكشف، و وصل عددهم، منذ ذلك التاريخ الى غاية ١٩٦٧ تاريخ نشر عمل آخرهم، نحو عشرة أنفار, منهم على سبيل المثال لا الحصر:

١-الشيخ محمد عزّتي أفندي المشهور بـ"بوشنة زادة" الإسلامبولي (الإستانبولي) المتوفى سنة ١٠٩٢، الذي ألف ذيلا و سمّاه "ذيل كشف الظنون."

٢-أحمد طاهر أفندي الشّهير بحنفي زادة المتوفى ١٢١٧هـ ، الذي ألف ذيلا بعنوان "آثارنو" وطُبع في ليبزج مع الكشف.

---

[1] م.ش يالتقيا ، تصدير ، ص٨ ، (و النسخة المبيضة التي رآها جار الدولي الدين هي النسخة الموجودة في متحف طوب كابي سراي بخزانة روان كوشكي تحت رقم ٢٠٥٩.)

[2] المرجع نفسه ، ص.٨. ويذكر شهاب الدين النجفي المرعشي في المقدمة ، ص :و: إن الكتاب المختصر،هو(التذكار الجامع للأخبار) للشيخ النبهاني ، إختصر فيه كتاب الكشف و زاد عليه ما فات المؤلف و ما ألف بعده و نسخته موجودة بتمامها في مكتبة (ياكتى جامع) من جوامع إسلامبول..

[3] النبهاني ، تصدير ، ص٩.

٣-إسماعيل باشا البغدادي (ابن محمد أمين أفندي بن الأمير سليم البابني أصلا البغدادي مولدا نزيل "قرية مقري كوبي" قرى قسطنطينية ,المتوفى سنة ١٣٣٩ه، الذي ألف ذيلا وسمّاه "إيضاح المكنون في الذّيل على كشف الظنون" .فرغ من تأليفه سنة ١٣٣٠ و طُبع سنة ١٣٤٦هـ [1].

و ما يسترعي الانتباه في "إيضاح المكنون" هو أنّه, رغم إلحاقه بالذّيول،فإنّه يمكن اعتباره عملا مستقلا، بحيث يحتوي على أكثر من عشرين ألف مادة جديدة، لم يتطرق إليها كشف الظنون؛ وقد رتبها على العناوين كما في الكشف.. كما قام صاحب إيضاح المكنون بإنجاز عمل آخر ,ضخم هو "هدية العارفين: أسماء المؤلفين و آثار المُصنفين" الذي هو عبارة عن تسجيل هجائي بالأسماء الأولى للمؤلفين [2].

٤-الشيخ أغا بزرك الطّهراني ١٩٣٦م، الذي قام بالتّعليق و تقييد بعض المعلومات البيبليوغرافية في نهاية الجزء الثاني، من هدية العارفين، المطبوع سنة ١٩٦٧ بطهران، و يقع الذيل في ١١٦ صفحة. و هو عبارة عن تسجيل ملاحظات على كشف الظنون بشكل تعليقات في هوامش نسخته، المطبوعة سنة ١٣١٠هـ. وفي هذا الذّيل معلومات قيّمة عن حاجي خليفة، وإضافات جديدة للكتب و المؤلفات، سواء كانت مخطوطة أو مطبوعة، تنم عن تتبع كبير لحركة التأليف و الطّبع معا،بحيث يعطي بالإضافة إلى ذلك، أماكن تواجد المخطوطات في المكتبات و المساجد الإسلامية، و يصحّح بعض ما وقع فيه سابقوه حول تراجم المؤلفين و الكتّاب..

وبالإضافة إلى نشره ضمن كتاب "هدية العارفين" لإسماعيل باشا البغدادي، طُبع هذا الذيل في طبعة كشف الظنون الطهرانية، (دار النشر الإسلامية بطهران)، و جُعل أيضا هذا الذيل في خاتمة الكتاب..

منهج الكتاب:

يعتبر كتاب كشف الظنون أوعب الكتب المصنفة و أوسعها في بيان أحوال الكتب. به زهاء ١٥٠٠٠ من أسماء الكتب و الرسائل و ما ينيف على ٩٥٠٠ من أسماء المؤلفين، و تكلّم فيه صاحبه عن نحو ثلاثمائة علم و فن. و سمّاه أولا بكتاب "إجمال الفصول و الأبواب في ترتيب العلوم و أسماء الكتّاب" ثم سمّاه ثانيا بكشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون.

ويكاد منهج حاجي خليفة كلّه، يتضح في هذه الفقرة، التي حوتها المقدمة، إذ يقول:"و رتّبته على الحروف المُعجمية كالمغرب و الأساس حذرا من التكرار و

---

[1] راجع ذلك في القائمة التي كتبها المرعشي في المقدمة.ص:و

[2] للشيخ بزرك الطّهراني مؤلف بيبليوغرافيشامل بعنوان " الذريعة في تصانيف الشّيعة". يحتوي على ٣٤١٤ مادة (كتاب) مرتبة أبجديا ويقع في عشر مجاد{ات.راجع دائرة المعارف الإسلامية بالفرنسية:
ENCYCLOPEDIE DE L' ISLAM. TOME 1 p.1233

الالتباس. و راعيت في حروف الأسماء الى الثالث و الرّابع ترتيبا. فكل ما له اسم ذكرته في محلّه مع مصنّفه و تاريخه و متعلقاته و وصفه تفصيلا و تبويبا. و أوردت أيضا أسماء الشروح و الحواشي، لدفع الشبهة و رفع الغواشي، مع التّصريح بأنه شرح كتاب فلاني و أنه سبق أو سيأتي في فصله [1].

ثم يوضح منهجه القائم على تريب المؤلفات، أكثر بقوله:"..و ما لا اسم له ذكرته باعتبار الإضافة إلى الفن أو إلى مصنفه في باب التاء و الدال و الراء و الكاف برعاية الترتيب في حروف المضاف إليه كتاريخ ابن الأشير، و تفسير ابن جرير، و ديوان المتنبي و رسالة ابن زيدون و كتاب سيبويه و أوردت القصائد في القاف و شروح الأسماء الحسنى في الشين (..) و ما ليس بعربي قيّدته بأنه تركي أو فارسي أو مترجم ليزول به الإبهام و أشرت إلى ما رأيته من الكتب [2] من أوله للإعلام.."

وبعد ما يُرتب المفردات حسب عناوينها، يعرّج ليذكر فروع المعرفة البشرية أيضا، في ترتيبها الهجائي، و أعقب كل موضوع بمجاله و شرح لمعناه و استخداماته، كما في قوله:"و أمّا أسماء العلوم فذكرتها باعتبار المضاف إليه فعلم الفقه مثلا في الفاء و ما يليه كما نبّهت عليه مع حصر أسماء كتبه على الترتيب المعلوم، و تلخيص ما في كتب موضوعات العلوم كمفتاح السعادة و رسالة المولى لطفي الشّهيد [2].

أمّا مقدمة الكشف، التي تقع في ثمان و خمسين صفحة، فيرصد فيها حاجي خليفة أحوال العلوم و فيها أبواب و فصول:

الباب الأول: في تعريف العلم و تقسيمه، و فيه فصول

-الفصل الأول: في ماهيته.

-الفصل الثاني: فيما يتصل بماهية العلم من الاختلاف و الأقوال.

-الفصل الثالث: في العلم المدوّن و موضوعه و مباديه و مسائله و غايته؛ و معه بيانات ثلاثة: ١-البيان الأول في بحث الموضوع. ٢-البيان الثاني في المبادئ. ٣-البيان الثالث في مسائل العلوم، ثم خاتمة الفصل في غاية العلوم.

-الفصل الرّابع: في تقسيم العلوم بتقسيمات معتبرة و بيان أقسامها إجمالا، و قد جعل ذلك في تقسيمات خمسة.

-الفصل الخامس: في مراتب العلم و شرفه و ما يلحق به و فيه إعلامان: الأول في شرفه و فضله، الثاني في كون العلم ألذ الأشياء و أنفعها، و فيه تعليمان، الأول، في لذته و الثاني في نفعه، و ينقسم هذا إلى أربعة أقسام هي: ١-ما ينجلب بالعلم من المنافع الدينية. ٢-ما ينجلب بالعلم من المنافع الدنيوية. ٣-ما يندفع بالعلم من المضار الدينية. ٤-و هو ما يندفع بالعلم من المضار الدنيوية.

الباب الثاني: في منشأ العلوم و الكتب و فيه فصول أيضا.

---

[1] المصدر ، الجزء الأول، ص.٣.

[2] حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج١،ص٥٨ .

- **الفصل الأول:** في سببها وفيه إفهامات، إفهام أول: في العلم الطبيعي للبشر و أنه محتاج إليه، الإفهام الثاني: في أن العلم و الكتابة من لوازم التمدن. الإفهام الثالث: في أوائل ما ظهر من العلم و الكتاب.

- الفصل الثاني: في منشأ إنزال الكتب و اختلاف الناس و انقسامهم و فيه فصاحات. الأول: في حكمة إنزال الكتب، الثاني: في أقسام الناس، الثالث: في أقسام الناس بحسب العلوم. و في بين هذه الأمم تلويحات: التلويح الأول: في أهل الهند، الثاني: في الفرس، **الباب الثالث:** في الكلدانيين، الرّابع: في أهل اليونان، الخامس: في الرّوم، السادس: في أهل مصر، السابع: في العبرانيين، الثامن: في العرب.

-الفصل الثالث: في المؤلفين و المؤلفات و فيه ترشيحات.

الأول: في أقسام التدوين و أصناف المدوّنات، الثاني: في الشّرح و بيان الحاجة إليه، الثالث: في أقسام المصنّفين و أحوالهم.

الباب الرابع: في فوائد منثورة من أبواب العلم، و فيه مناظر و فتوحات.

المنظر الأول: في العلوم الإسلامية، الثاني: في أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم. الثالث: في أن العلم من جملة الصنائع لكنه أشرفها. الرّابع: في أن الرحلة في الطلب مفيدة، الخامس: في موانع العلوم و عوائقها، و فيه فتوحات (و قد عدّ منها تسعة)، المنظر السادس: في أن الحفظ غير الملكة العلمية، السّابع: في شرائط تحصيل العلم و أسبابه و فيه فتوحات أيضا (و عدّ منها إثنتي عشرا). الثامن: في شروط الإفادة و نشر العلم و فيه فتوحات (ثلاثة). التاسع: فيما ينبغي أن يكون عليه أهل العلم، العاشر: في التعلّم و فيه فتوحات ستة.

الباب الخامس: في لواحق المقدمة من الفوائد و فيه مطالب:

١- مطلب لزوم العلوم العربية.
٢- مطلب علوم اللّسان العربي.
٣- مطلب الأدبيات.
٤- مطلب إنه لا تتفق الإجادة في فنّي النّظم و الشّعر إلاّ للأقل.
٥- مطلب تعيين العلم الذي هو فرض عين على كل مكلف.
٦- مطلب أسماء العلوم.
٧- مطلب عدم تعيين الموضوع في بعض العلوم.

في نهاية هذه الأبواب الخمسة بفصولها و مناظرها و شرائطها و مطالبها، يختم هذه المقدمة، بفقرة قصيرة، سمّاها خاتمة؛ قال فيها: "و اعلم أن الغرض من وضع هذا الكتاب أن الإنسان لمّا كان محتاجا إلى تكميل نفسه البشرية و التكميل لا يتم إلاّ بالعلم بحقائق الأشياء، و بالعلم بكتاب الله و سنة رسوله و جب تعلّم العلوم(..) ثم العلم بأصناف الكتب في نفسها و مرتبتها ليكون على بصيرة من أمره، و يقايس بين

العلوم و الكتب فيعلم أفضلها و أوثقها(..) و يعلم حال المؤلفين و وفياتهم و أعصارهم و لو إجمالا فلا يقصر بالعالي في الجلالة عن درجته و لا يرفع غيره عن مرتبته [1].
ثم يمضي المؤلف في عرض مادة كتابه مرتبة، على نحو ما أشار إليه في المقدمة، و قد أعطى عن كل عنوان ما أمكنه من معلومات بيبليوغرافية، كالمؤلف و تاريخ النسخ و وصفه وصفا تفصيليا. و لم ينس في ذلك، أسماء الشروح المؤاخذات عليه و النقد له، كأي عمل عظيم، كتب له أن يجمع تراث المسلمين، فيصبح أضخم و أوسع مرجع عام حول الكتب المخطوطة باللغة العربية..

طبعات الكتاب:

كان الاهتمام بطبعه كالاهتمام بتذييله، حيث وصلت طبعات الكتاب إلى حدّ الآن، حوالي خمسة طبعات، كانت الأولى بعناية المستشرق الألماني، "غوستاف فلوجل "بليبزج بألمانيا فيما بين سنتي ١٨٣٨-١٨٥٨. في سبعة أجزاء. و ألحق بالمجلد السادس تذييل حنفي زادة، المسمّى "آثار نور" و في المجلد السابع وضع ملحقا بفهرس كتب الجامع الأزهر، و مدرسة أبي الذهب و غيرها من مكتبات استنبول. كما ترجمه ثلّة من المستشرقين، أشهرهم، فلوجل. ثم بيتس دي لاكروا إلى الفرنسية، ثم الهولندية.
كما عرفت مطبعة بولاق بمصر، سنة ١٢٧٤هـ، طبع الكشف.و في استانبول صدرت طبعة للمؤلف، هي الطبعة الثالثة سنة ١٣١٣هـ ، ثم طبعة أخرى سنة ١٣٢٠هـ .

أمّا الطبعة الخامسة، فقد كانت أيضا باستنبول سنة ١٣٦٠-١٣٦٢هـ ، لكنّها هذه المرة مع إيضاح المكنون و هدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي. ثم تكرّر بعد ذلك، نشر و طبع هذا الكتاب، استنساخا على الأوفت بتواريخ و بدونها.
أمّا الطبعة المتداولة و التي اعتمدنا عليها في هذا البحث، فهي من مطبعة مكتبة المثنى ببغداد، التي تقع في ست مجلدات. خصّص الأول و الثاني منها، إلى كشف الظنون، و الثالث و الرّابع لإيضاح المكنون، و الخامس و السادس لهدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي.

ومهما يكن من أمر، فإن هذا العمل -الكشف- قد فتح باب الكتابة في "علم أحوال الكتب" كما سمّى حاجي خليفة ذاته، علم البيبليوغرافيا، على مصراعيه، فظهرت- بالإضافة إلى التذييلات التي عمّقت أكثر هذا العلم، و أعطته مكانته اللائقة ضمن العلوم الأخرى- أعمال أخرى، معاصرة له، مثل العمل الذي ينسب إلى عبد اللّطيف بن محمد رياض زادة، المتوفى سنة ١٠٧٨هـ ، و الموسوم بأسماء الكتب [1]، تارة، و أخرى بأسماء الكتب المتمم لكشف الظنون.

---

[1] طبع هذا الكتاب ، طبعتين الأولى سنة ١٩٧٥ ، عن دار الخانجي ، بالقاهرة ، محققة من طرف محمد التونجي ، والثانية في دمشق عن دار الفكر سنة ١٩٨٣م. ويقع الكتاب في مجلد واحد ، في ٣٢١ صفحة

و هو الأمر الذي أثار بعض التساؤلات، منها، هل العمل هو ذيل من الذيول لكشف الظنون، أم هو عمل مستقل؟

يشير رياضي زادة في مقدمة كتابه أنّه قد "ابتدأ الفقير إلى الله الغني القدير بجمع هذا السفر الكبير، في أوائل رمضان سنة ١٠٥٤ه، بعد سبعة أشهر من انتقال والدي إلى جوار ربه الغفور [١].

و انتهى منه في غرّة ذي القعدة من شهور سنة أربع و خمسين و ألف[٢] ، و انطلاقا من تاريخ بداية كتابته و تاريخ الانتهاء منه، يذهب محمد التّونجي إلى القول بأن هذا الكتاب، ليس ذيلا، و إنما هو عمل مستقل، ألّفه صاحبه على نسق كشف الظنون، و هدية العارفين، و الرّاجح أنه "ألّفه قبل أن يؤلف حاجي خليفة "كشف الظنون" و الغالب أن حاجي خليفة نفسه اطّلع على هذا الكتاب من المؤلف نفسه، أو أخذ من المُصنّف منهجه حينما كان مدرسا في المدرسة الآنفة الذكر [٣].

وبغضّ النظر، عن كون هذا الكتاب متمم لكشف الظنون أم مؤلف مستقل، و ما يترتب عن ذلك من نتائج ، (يطول الحديث عنها في هذا المقام)، فإنّ ما يــلفت الانتباه أن منهج رياضي زادة، يخالف قليلا منهج حاجي خليفة، بحيث لم يكتف رياضي زادة بتبويب الكتب، بل عرَّف بالمؤلف وعدّد أهم مؤلفاته و ذكر سنة و فاته و أحيانا سنة ولادته، كما أن كثيرا من الكتب فيه، لم تَرد في كشف الظنون، و لا في إيضاح المكنون.

وكان هذا المؤلّف من حيث المنهج، قد استقى معلوماته من اطلاعه كما عمد الّذين سبقوه في هذا الميدان، و كان أغلبها فيما يذكر المحقّق، من مكتبة "رستم باشا" التي درس فيها، و من مكتبة والده.

وعلى الرّغم من بعض المميّزات التي يتسم بها هذا الكتاب، فإنّ محمد التّونجي، يقرّ بأن كشف الظنون لحاجي خليفة " أفضل من كتابنا (كتاب رياضي زادة) و الفرق بيّن من حيث الحجم [٤].

ومهما يكن من أمر، فإنّه لم يُكتب أن ظهرت أعمال بيبليوغرافية شاملة، بعد كشف الظنون، أو أسماء الكتب أو مفتاح السعادة من حيث الاتساع و الشمول [٥]، ذلك أن السّبب

---

[1] رياضي زادة ، أسماء الكتب ، تحقيق محمد التونجي القاهرة ، مكتبة الخانجي ، (١٩٧٥) ، ص٢١.

[2] المصدر نفسه ، ص ٣٤٥.

[3] المصدر نفسه ، ص٨.

[4] محمد التوتجي ، المصدر السابق ، ص ٩.

[5] لقد عرفت أقلام أخرى من العالم الإسلامي محاولات من هذا النوع ، لكنها لم تصل إلى المستوى الذي وصل إليه عمل مثل (مفتاح السعادة) أو (كشف الظنون) ذلك لأنها انتقلت من (علم أحوال الكتب) وبالتالي التأليف ،عن الشمولية ، أي العالم الإسلامي مثلا ، إلى المحلية واعتمدت فيما اعتمدت على البيليوغرافيا الجغرافية ، أو التي نطلق من منطقة جغرافية محددة.

قد يكمن في أن ما ظهر من موسوعات ببيلوغرافية ابتداء من القرن العاشر ، كان جله تركيبي المنشأ ، و مردّ ذلك يمكن أن يكون أيضا ، أن أغلب هؤلاء البيليوغرافيين،كانوا يستقون معلوماتهم ، وينجزون أعمالهم، انطلاقا من إحساسهم بالانتماء إلى الحضارة الإسلامية و بالتالي إلى الخلافة الإسلامية ، التي مقرها الأستانة ، وخزائنها و مكتباتها ومدارسها، و هو الأمر الذي جعل من هذه الأعمال تنطلق في مجال دراستها منطلقات شاملة ..

و الأمثلة عن ذلك كثيرة ، لكن المثالين التاليين يغنيان عن ذلك.

المثال الأول: هو (الإعلام بمن حلّ بمراكش و أغمات من الأعلام) للعباس بن إبراهيم المراكشي ، الذي عاش خلال القرن التاسع عشر الميلادي، و بداية العشرين منه، وطبع الكتاب في ١٠ مجلدات (يضم ١٦٥٠ ترجمة ، لكل من كانت له صلة بمراكش) من تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، الرّباط : المطبعة الملكية ، ١٩٧٤-١٩٨٣م.

أما المثل الثاني فهو: تعريف الخلف برجال السّلف ، لأبي القاسم محمد الحفناوي الجزائري.

تحقيق محمد أبو الأجفان ، عثمان بطيخ ، و يقع هذا الكتاب في جزئين (٦٢٤ صفحة)..

و يخص بالدرجة الأولى علماء الجزائر ، يعتمد فيه صاحبه (كما يذكر هو) على العديد من التراجم ، مثل وفيات الأعيان لإبن خلكان ، عنوان الدراية للغبريني ونيل الابتهاج لأحمد بابا التونبوكتي و غيرها..

و لكنه ، مع ذلك ، يعطينا صورة هامة عن النشاط التاليفي عند أسلافنا.